دليل المناضل في النظرية

9

لوسيان سيف

البنيوية والماركسية



البنيوية والماركسية

دار ابن خلدون

بيروت ـ كورنيش المزرعة ـ بناية ريفييرا سنتر
هاتف ٣١٢٣٣٥
٨١٧٣٨٥
ص. ب ١١٩٣٠٨

الطبعة الاولى
١٩٨١/٣/١٥

دليل المناضل
ـ في النظرية ـ ٩ ـ

لوسيـــان سيف

البنيوية ... والماركسية

ترجمة وتقديـم : عبد الحميد عبد الله

دار ابن خلدون

مـدخل

كثيرة هي التيارات الفكرية التي تعرض لهـا الوسط الثقافي في العالم العربي منذ عصر النهضـة الحديثة وحتى اليوم . ولكنه لم يلتحم ولم يتلاقح الا مع تلك التيارات التي ساعدته على ادراك مهام ومراحل النضال التحرري الديمقراطي والثوري ، وأنارت لـه سبل الاقتراب من ينابيع الالهام والابداع ، سبـل التعرف على الشعب ونضاله من اجل التخلص من كل آثار العبودية والاضطهاد الوحشي والنهب الاستعماري والاستغلال بمختلف اشكاله ، وفي سبيـل تحقيق حريته بكـل ابعادها السياسيـة والاقتصاديـة والاجتماعية .

وهكذا ، فان النسغ الصاعد في الثقافة العربية المعاصرة كان وما يزال هو المعبر عن هموم ومصالـح الجماهير الشعبية في التحرر الوطني ومحو التخلف المزمن وتحقيق الديمقراطية والتحولات الاجتماعيـة العميقة. وثقافة هذا طابعها لا يمكن لها أن تتوقـف طويلا أمام موجات فكرية ذات طابع وسهام تختلـف جوهريا عن تلك التي تمليها عليها المرحلة التاريخية .

ولذا فان تلك الموجات الفكرية سرعان مـــا انحسرت مقتلعة معها بعض المثقفين العرب من جذورهم ، ملقية بهم في اليباب ، مخلفة وراءها ما يخلف الاعصار عادة من دمار . فالطاقات الفكرية التي تبددها هذه الموجات في أثناء عنفوانها يمكن لها لو ادركت مهامها الاصيـلة النابعة من مرحلة التطور التي تمر بها شعوب الامـــة العربية في نضالها الشاق والعنيد لساعدت على ارساء ثقافة ديمقراطية وثيقة الصلة بالجماهير وبسعيهـــا الدؤوب من اجل الحرية . ان سير رجال الفكـر في متاهات لا تعرف مسالكها لا يضلهم وحدهم، بل ويضل معهم اناسا يهتدون بهم . وما أحســـب المعري الا متحدثا عن هذه الحالة حين قال :

قال صحبي ونحن في لجة من الحندس والبيد اذ بدا الفرقدان
نحن غرقى فكيف ينقذنا نجمان فيحومة الدجى غرقان

ان موجة جديدة من هذا النوع أخذت تتغلغل في الوسط الثقافي العربي بسرعة ، وراحت تلوح للبعض وكأنها النجم الهادي ، ونعني بذلك البنيوية . وهـي ــ كما يبدو ــ يراد لها ان تحتل المكانة التي احتلتها من قبل وجودية سارتر. وهذا ما يدعونا اليوم لترجمة ونشر المقالة التي كتبهـا المفكر الفرنســـي المعروف لوسيان سيف ، والتي تلقي اضواء كاشفة على طبيعة

هذا التيار الفكري البرجوازي وطموحه ــ وبخاصة نوعه التطوري ــ للحلول محلّ الماركسية بعد ان عجزت الوجودية السارترية عن القيام بذلك ، بل و«تقاعدت» كما يقول اوسيان سيف . ورغم ان المقالة كتبت تعليقا على ظاهرة من ظواهر الحياة الفكرية الفرنسية، كما يؤكد عنوانها الاصلي « البنيوية : ملاحظات حول ناحية من نواحي الحياة الايديولوجية الفرنسية » ، الا أنها تنير الطريق امام القارىء العربي ، فتبين له طبيعة هذا التيار الفكري ومفهومه الاساس ، البنية ، وتبحث في الصلة بينه وبين الماركسية التي تدرس البنية في صورتها دراسة تاريخية ديالكتيكية ، وبذلك تستبعد تحويلها الى مفهوم ميتافيزيقي كما تفعل البنيوية . وبالاضافة الى ان المقالة تتناول اصول البنيوية ، واسباب ذيوعها، ومدى صلتها بالماركسية، الا انها تركز على الاختلافات الاساسية بين الفلسفتين وتكشف عن الزيف والتشويه المتعمد الكامن وراء ادعاء مثل هذه الصلة .

والكاتب اذ يوضح ان البنيوية كفلسفة برجوازية خطوة متقدمة على الوجودية ، يعمد الى تعرية تناقضها وعدم تماسكها . فهي رغم اقرارها بالبنية كأساس لها تفرد عنصرا واحدا من عناصرها ، اللغة ، لتجعل منه عاملا حاسما . وهو يتناول البنيوية بنوعيها السكوني والتطوري . ومع ان النوع الاخير أكثر تقدما غير انه

يبقى أسير تناقضاته الداخلية التي تحيل تعميماتـــه الفلسفية الى مسألة غير مقبولة .

وفي الختام لا بد من الاشارة الى ان هذه الترجمة هي لنص مقالة لوسيان سيف المنشور باللغة الانكليزية في أوائل السبعينات .



البنيوية
هل هي الضالة المنشودة ؟

شهدت السنوات القليلة الماضية اهتماما متزايدا في فرنسا بأعمال البنيوية المعاصرة والمناقشات النظرية حولها . ووصل هذا الاهتمام الى أوجه في فترة ١٩٦٥ ــ ١٩٦٧ ، الا أنه خلال الستينات نشرت على نطاق واسع أعمال الانثربولوجي س. ليفي ــ شتراوس والمفاهيم اللغوية المرتبطة بها، ونظريات المحلل النفساني لاكان والمؤرخ الثقافي الانساني فوكو وكذلك أعمال باحثين آخرين غالبا ما يذكر من ضمنها الفيلسوف الشيوعي **النوسر** ، وقد لقيت هذه الاعمال اهتماما كبيرا وتعرضت لمناقشات واسعة .

وهذا الاهتمام المركز على مدرسة فلسفية واحدة ليس غريبا في التاريخ الفرنسي المعاصر ، فثمة موجة البرغسونية في ١٩٠٠ ــ ١٩٢٠،والشعبية الهائلة لوجودية سارتر في ١٩٤٥ ــ ١٩٦٠ . الا أن أبسط الدراسات ستكشف انالبنيوية ، بمقارنتها بتلك المدارس الفلسفية ، تتمتع ببعض السمات

الجديدة التي تعبر عن تغيرات عميقة في حياة البلاد الايديولوجية .

ان البنيوية لا تهتم بالاعلان عن « فلسفة جديدة» قدر اهتمامها باثبات افلاس المفاهيم الفلسفية القائمة في ضوء كمية المعرفة التي جمعتها علوم الانسان والتي تقدم بالاضافة الى ذلك على انها حقائق ثابتة غير قابلة للدحض . وهي ، بدلا من الاعتماد على « فيلسوف عظيم » ؛ « سلطة واحدة متسلطة على عقول الناس »، تعتمد على مجموعة من المفكرين الذين يبشرون بأفكار جديدة . ومن ثم لا يمكن تناولها كمدرسة فلسفية متماسكة واحدة ، اذ انها تتخذ اشكالا متعددة الغاية، بعضها مجتزأ ، بينما بعضها الآخر متناقض . وموقفها من الماركسية موقف ملتبس : فمن ناحية تعتبرها وثيقة الصلة بها أو في الاقل سلفها ، ومن الناحية الاخرى ترفضها « كفرع ميت » في شجرة التسلسل البنيوية . واخيرا ، لقد استمتعت البنيوية بأيام مجد قصيرة : بدأت في الجدل الحاد الذي قام به ليفي – شتراوس مع سارتر في كتابه « التفكير المتوحش » (١٩٦٢) ووصلت ذروتها عام ١٩٦٦ عند ظهور كتاب فوكو «الكلمات والاعمال »، وكتاب لاكان « كتابات » (وظهرت أعمال التوسر ورفاقه حول ماركس ورأس المال في نهاية عام ١٩٦٥)، ثم طمستها احداث أيار (مايو) – حزيران (يونيو) ١٩٦٨ .

ومن المنطقي ان يتساءل المرء لماذا برزت البنيوية بسرعة في منتصف الستينات . فحتى عندما بدأت أفكارها تلفت الانتباه في الاوساط العلمية ، لم يراود الظن احدا ، على ما يبدو، في أنها تستطيع أن تحدث نوعا من « الثورة » في نظرية المعرفة . وفي الواقع ان البحث الاساس الذي يشكل قاعدة البنيوية الحديثة يعود تأريخه الى الثلاثينات ، وحتى غالبيته الى فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى . ويمكن في هذا المجال ذكر اعمال سارتر ومن بعد تروبيسكوي وجاكوبسون وحلقة براغ في علم اللغة وعلم النفس واعمال نظريي الجيشتالت الذين تنبأوا الى حد كبير في فترة ما بين الحربين بمزاعم البنيوية الحالية، ومن ناحية اخرى كذلك أعمال فرويد ، وفي الحقل الفلسفي هوسرل ومن ثم أعمال باكيلارد حول القضايا الفلسفية للعلم.

وكل ذلك يحتم على الماركسيين ان يحللوا باسهاب الاسباب التي دعت الى ذيوع البنيوية ، ولاسيما على النحو الذي حدث في السنوات القليلة الماضية ، عقب فترة قصيرة من الركود ، حيث ظهرت بوادر عديدة على انتعاش الافكار البنوية في أشكال جديدة . وهذا يرتبط جزئيا ببروز فروع معرفة جديدة .

تحولات في الايديولوجية

لماذا لم تنتعش البنيوية الا في منتصف الستينات ؟ في رأينا أن أحد الاسباب الرئيسية ، ان لم يكن السبب الرئيسي ، هو أن أنظمة فلسفية تقليدية ذات طابع تأملي كانت تسيطر على واجهة الحياة الايديولوجية حتى عام ١٩٦٠ . فالروحية الجامعية والديكارتية ، بميلهما الى الذاتية كأحد اشكال الوعي البرجوازي التجريدي ، سادتا فترة تزيد على ١٥٠ عاما ، ليس بسبب صحتهما العلمية ، بل بسبب الثرثرة العلمية التي غلفا فيها القضايا الحيوية الملحة وقدماها الى عامة القراء بشكل « عقلاني » الى حد ما. وقد مكن ذلك الذاتية الفلسفية الى فترة طويلة من جعل العديد من المثقفين يجهلون منجزات مختلف العلوم الانسانية التي لم تكن نفسها في غالبية الاحيان ترتكز على أسس متينة . فبرغسون مثلا فرض افكاره الذاتية على السايكو ـ فسيولوجي والبايولوجي لحملهما على خدمة الروحية التطورية . ويقوم سارتر بالدور نفسه الى حد بعيد في ظروف مختلفة . فهو يستخدم معلومات علم النفس السلوكي (راجع : مقالة

حول نظرية الظاهراتية والانفعـــالات) او التحليـل النفسي (راجع : بودلير) او حتى المادية التاريخية (راجع التفكير الديالكتيكي) وبعد قلبها رأسا على عقب يقدمها على أنها مظاهر « حرية اختيار » الفرد، التي تعتبر في رأيه العامل الحاسم . وعلى الرغـم من بعض الاختلافات والتناقضات، فان هذه الاتجاهات ومثيلاتها في الذاتية الفلسفية قامت بالوظيفة ذاتها للايديولوجية البرجوازية، اعني الاعاقة، قدر الامكان، لآخر « ثورة كوبرنيكية » ستعلن حتما نهاية الفلسفات المثالية .

ولذا فمن الطبيعي أن تسيطر الافكار البنيويـة على المسرح الايديولوجي في الوقت الذي لم تعد فيه الذاتية ـ آخر ثمرة للفلسفات المثالية العظمى القديمة ـ لاول مرة منذ ظهور الفلسفة البرجوازية ، قادرة على الحفاظ على مكانتها . وهذا يؤكد دون أدنى شـــك موضوعة انجلز بأن انهيار جميع الانظمة الفلسفيـــة التأملية أمر حتمي . وليس عرضيا ان أفكار ليـفي ـ شتراوس بدأت تلفت الانتباه في الوقت الذي فشل فيه سارتر في محاولاته اليائسة ـ في نقدالتفكـير الديالكتيكي ـ لانقاذ المبدأ الذاتي ـ المثالي حـــول أولوية وسيادة الوعي الفردي. وقد فشل ســارتر رغم ارتكازه ـ في محاولة التظاهر بالوضوعية ـ على المادية التاريخية . (ومنذ ذلك الوقت حاول سارتر

تمويه فشله النظري بانضمامه الى مجموعات يسارية برجوازية صغيرة غير مبدئية). وكان « الناقوس الثالث » الذي أعلن ظهور البنيوية هو رفض ليفي - شتراوس ، باسم علم الانسان، للايديولوجية الذاتية، ولاسيما مظهرها الاخير ، وجودية سارتر . وقد قام بذلك في الفصل الختامي لكتاب « التفكير المتوحش».

يجري ذلك في وقت يزداد فيه وضوح نتائج السيطرة الاحتكارية المباشرة لجهاز الدولة على جميع مجالات الحياة الاجتماعية . فنمو رأسمالية الدولة الاحتكارية يؤدي الى انهيار سريع للفئة الوسطى التقليدية والمجموعات البرجوازية القديمة ومؤسساتها السياسية وايديولوجيتها « الكلاسيكية » التي تمثلت في فرنسا الى فترة طويلة بالفلسفة الجامعية بالدرجة الاولى . ان الطبيعة الطوباوية « للطريق الثالث » -في منتصف الطريق بين الاحتكارات والطبقة العاملة- في حل « مشكلات فرنسا » أخذت تزداد وضوحا. ومن ثم فان افلاس الفلسفة التأملية عموما وفلسفة « الطريق الثالث » التي ينادي بها سارتر في وجوديته أصبح ايضا واضحا للعيان. وهذا ما يفسر ايضا الاهتمام الزائد بالماركسية التي ساهم انتشارها في ايجاد ظروف ايديولوجية مؤاتية للمعارك الطبقية في أيار (مايو) - حزيران (يونيو) ١٩٦٨ .

لقد حاول البنيويون تقديم آرائهم الى الرأي العام على أنها عناصر فلسفة جديدة ترمي الى الحلول محل الوجودية وغيرها من الفلسفات الذاتية .
فكان ذلك محور كل أدبياتهم الشعبية ، التي كان الكثير منها ذا توجه مضاد للفلسفة . وساعد البنيوية ايضا زعمها أنها تعمم نتائج الابحاث في مختلف حقول العلم ، ولا سيما علم اصول السلالات البشرية وعلم النفس. **واعتبرت الحركة البنيوية في البداية قريبة من الماركسية** ، وهذا ما بدا ان مؤلفات **ألتوسر** تشير اليه . وفي الواقع أن اعلان نهاية الفلسفة باسم علوم الانسان ـ المقصود الانظمة المثالية القديمة ـ والنقد الجذري لمجمل الايديولوجية الذاتية للانسانية على أساس تحليل الظروف الموضوعية لكل « حقيقة انسانية » كانت دائما مبادىء ماركسية (لا يستطيع فهمها تحريفيون من امثال غارودي فقط).

وهكذا أخذ العديد من المثقفين في منتصف الستينات يعتبرون البنيوية شكلا جديدا لتأييد الماركسية الحق تحت اشراف علماء بارزين ومحاضرين جامعيين لهم مكانتهم . وفي هذا المجال الجو الايديولوجي الغريب قبل العديد من المثقفين التقدميين شيئا معارضا للماركسية كلية على انه تطور في الماركسية . وبالاضافة الى ذلك أظهر هذا « التطور

الجديد » ـ البنيـــوية ـ انه ينـــوي أن يصبـــح الايديولوجية السائدة ، معلنا في الوقت ذاته نهايـــة كل الايديولوجيات . واذا ما وضعنا في الاعتبـــار احتكار النشر ونشر الافكار ، فان البنيوية بدأت بداية طيبة لتصبح اكثر الموجات الايديولوجية التي شهدتها فرنسا شعبية ■



هل هي منهج ماركسي ؟

يصف ليفي ـ شتراوس منهج البنيوية كما يلي: أولا ، يجب على المرء أن يجمع حقائق منفصلة ويحللها ثم يعد قائمة كاملة بها. ثانيا ، يجب على المرء ان يقرر العلاقة المتبادلة بين الحقائق ويبوبها في مجموعات ويقرر ارتباطاتها الداخلية . ثالثا ، يجب على المرء أن يركب الاجزاء في كيان واحد ، ويضع العناصر المعنية في نظام، وبالتالي ينتج شيئا واحدا متكاملا للبحث (راجع : **ليفي ــ شتراوس ، الطريقة** الطوطمية اليوم ، باريس ، ١٩٦٥ ، ص ١٨ ــ ٢٣). ان هذا هو المحور ذاته للمنهج الذي أعطى اسمه للفلسفة بكاملها :

البنية كنظام تتحكم به قوانين محددة

وفي معنى أعم، ان مفهوم البنية يشير الى نظام لعلاقات داخلية ثابتة يحدد السمات الاساسية لشيء ويضم كلا متكاملا لا يمكن اختزاله الى مجموع بسيط لعناصره . وبتعبير آخر ، يضم نظاما يتحكم في هذه العناصر ، فيما يتعلق بنمط وجودها وقوانين تطورها.

ومفهوم البنية هذا ليس جديدا على الماركسية . ففي الواقع ان الاختلاف الجذري بين البنيوية والماركسية لا يعكس نفسه في هذه المرحلة الاولية ، أي في مفهوم البنية . بل على العكس ، ان مدارس الفكر المعاصرة استعارته من الهيجلية وحتى بدرجة كبيرة من الديالكتيك الماركسي . ويمكن القول بحق ان مؤسسي الشيوعية العلمية اول من استخدم مفهوم البنية في منتصف القرن التاسع عشر فيما يتعلق بمقولة الوجود الانساني **كالمجتمع** ، وليس فيما يتعلق باللغة ، او بمجال الوعي الباطني او نظام القرابة ، كما تم ذلك في مطلع القرن الحالي فقط .

ففي عام ١٨٥٩ كتب ماركس في مقدمة « نقد الاقتصاد السياسي » يقول : «يدخل الناس في أثناء الانتاج الاجتماعي لحياتهم ، في علاقات محددة حتمية ومستقلة عن ارادتهم ، علاقات انتاج تتلاءم مع مرحلة معينة من تطور قواهم المادية المنتجة . ومجموع علاقات الانتاج هذه يشكلّ البنية الاقتصادية للمجتمع . التي هي الاساس الحقيقي ، الذي تقوم عليه البنى الفوقية القانونية والسياسية ، وتنسجم معه أشكال معينة من الوعي الاجتماعي » . وفي « المخطوطات الاقتصادية لفترة ١٨٥٧ ـ ١٨٥٩ » وسع ماركس مفهوم المجتمع ككل عضوي ملاحظا انه : « في مجتمع برجوازي تام تفترض كل علاقة اقتصادية وجود

علاقة اخرى برجوازية واقتصادية من حيث الشكل، تؤثر الواحدة منهما في الاخرى كما هو الحال في كل نظام عضوي. ويملك هذا النظام العضوي ككل متكامل، شروطا ذاتية ؛ ويمكن تطوره نحو الوحدة المتكاملة في اخضاع جميع عناصر المجتمع او خلق الاجهزة التي يفتقر اليها . وهكذا يتحول النظام خلال مسيرة التطور التاريخي الى وحدة كاملة . » ان هذا بلا شك أشمل تعريف لمفهوم البنية ؛ وبالتالي فان البنيوية المعاصرة لم تضف اي شيء ذا قيمة باستثناء محاولاتها لاضفاء شكلية رياضية على ذلك .

ولعل في هذه الحالة ، يبدأ **الخلاف** بين البنيوية والماركسية في تعريف **قواعد تطبيق** مفهوم البنية. فالبنيوية تنادي بما تعتبره المبدأ الاساس لاولوية التناول التزامني Synchronic على التناول من خلال التعاقب الزمني (تاريخيا Diachronic ، وان الفهم الصحيح لهذا المبدأ يكشف عن عدم وجود خلاف جوهري بين الماركسية والبنيوية حول هذه النقطة. فما الذي يشير اليه هذا المبدأ عمليا بمفهومه الدقيق؟ انه يشير فقط الى ان التطبيق الصحيح لمناهج البحث يتطلب تمايزا واضحا بين دراسة بنية معينة من زاوية حالتها ووظيفتها في فترة معينة (التناول التزامني) وبين دراسة طريقة تغيرها مع الزمن (التناول التعاقبي) . أي بتعبير آخر ، ينبغي عدم الخلط

بين تشخيص الهيئة وتغيير الهيئة . وبالاضافة الى هذا ، اذا كان التاريخ في الواقع هو تاريخ بنى وليس عناصر منفصلة ، فان على المرء ان يدرك **حالة** هـــذه البنى حتى يتمكــن فيما بعــد من تقرير **تأريخها** . وبالاعتماد على هذا التفسير فان القاعدة البنيويـــة الاساسية لا تناقض التفكير الماركسي ، وبوسعنا ان نشير مرة اخرى الى ماركس الذي استخدم منهجا مماثلا في تحليل الظواهر الاقتصادية للرأسمالية .

لقد كان هدف ماركس اثبات الحتمية التاريخية للاستعاضة الثورية عن المجتمع الرأسمالي بنوع أعلى من العلاقات الاجتماعية الاشتراكية . فقد استخلص ضرورة حدوث مثل هذا التغيير ليس من خطط تطور **مجردة** ، **بل من تحليل** شمل للبنى الداخلية وعمــل الاقتصاد الرأسمالي المستقر ظاهريا . وهكذا انطلق ماركس من **البنى الى التاريخ** . وأكد في كلامه عــن أسلوب تحليله للمقولات الاقتصادية على « انه من غــير المسموح به ومن الخطأ تناول المقولات الاقتصادية وفق النسق نفسه الذي لعبت فيه دورا حاسما فيالتاريخ . بل على العكس ان ما يقرر النسق هو العلاقة القائمــة بينهما في المجتمع البرجوازي المعاصر ، وهذه العلاقــة تتعارض تعارضا تاما مع ما قد يبدو طبيعيا او منسجما مع تسلسل التطور التاريخي . فالقضية ليست قضية المواقع التي احتلتها تاريخيا العلاقات الاقتصادية فــي

التشكيلات الاجتماعية المتعاقبة . كما انها ليست قضية تتابعها « في الفكر » (برودون) ، ذلك التصور المنحرف عن العملية التاريخية . انها قضية تسلسلها من حيث الاهمية في المجتمع البرجوازي الحديث » .

مما لا ريب فيه ان هدف الاقتصاد هو الكشف عن قوانين التطور الاجتماعي ـ الاقتصادي ، ولكن لا يمكن القيام بذلك الا بعدالكشف عن العلاقات الداخلية بين النواحي المختلفة للشيء الذي نقوم بدراسته . فبهذا الاسلوب فقط نستطيع ان نبرز الحركة بشكل صحيح . وقد كانت هذه هي الخطة التي أعد بموجبها « رأس المال ». فالكتاب الاول يحلل الظواهر التي تشكل **عملية الانتاج الرأسمالي** بحد ذاتها . بينما يكرس الكتاب الثاني الى **عملية التداول** التي تكمل عملية الانتاج . وفي الكتاب الثالث أمكن « وصف الاشكال المحددة التي تبرز من **حركة رأس المال ككل** » (كارل ماركس ، رأس المال ، موسكو ، ١٩٦٢ ، المجلد الثالث ، ص٢٥). وكما ذكر ماركس في مناسبات عدة فان رأس المال لو كتب له أن يتم لانتهى بتحليل للصراع الطبقي ، أي ، الحركة الاجتماعية التي ستحل التناقضات في أسلوب الانتاج الرأسمالي . وبتعبير آخر،ان بحث ماركس ودراسته تدرجت من «التشريح الدقيق » للاشكال الاقتصادية التمهيدية الى دراسة

تغيرها مع الزمن Diachrony ثم الى العملية التاريخية ككـــل .

وهكذا ، أثبت ماركس قيمة المنهج البنيوي فــي تحليله للظواهر الاقتصادية للمجتمع الرأسمالي ، وذلك قبل فترة طويلة من استخدام هذا المنهج في علـــم اللغات وعلم اصول الســـلالات البشرية والتحليـــل النفسي .



الخلاف الجوهري مع الماركسية

ان كل ما سبق قد يترك انطباعا عن عدم وجود خلاف جوهري بين المنهجين البنيـوي والديالكتيكي . وهذا أمر توحي به دعوى ليفي ـ شتراوس بانـــه استعار مفهومه الجوهري للبنية ، « ضمن اشيـــاء اخرى من ماركس وانجلز ». وهو يقول في توسيعـه لذلك « انني أود أن أدخل الى الاتجاه الماركسي ، مرة أخرى ، جميع منجزات علم اصول السلالات البشرية خلال السنوات الخمسين الماضية » (الانثرويولوجيا البنيوية . باريس ١٩٥٨ ، ص ٣٦٤).

وهنالك قوله الهام في ملاحظات السيرة الذاتية في الفصل السادس من كتابه « الاقطاب الحزينـة »: لقد أطربني ماركس وهزني لاني ولجت عبر عقله الضخم الى الاتجاه الفلسفي الممتد من كانت الى هيجل: فتفتَّح امامي عالم بأكمله .. ولم أفقد هذا الشعور منذ ذلـك الوقت، ونادرا ما حاولت الولوج الى قضية من قضايا علم الاجتماع أو علم أصول السلالات البشرية دون ان أنعش ذاكرتي أولا بقراءة بعض الصفحات من ، الثامن عشر من برومير لويس بونابرت ، او ، نقد الاقتصاد

السياسي ، » (الاقطاب الحزينة ، باريس ، ١٩٥٥ ، ص ٤٤).

ولكن من الصعب في تلك الحالة ان نفهم لماذا لا يعتبر البنيويون أنفسهم مجرد ماركسيين ولماذا يصرون على تسمية المنهج الذي يزعمون انهم استعاروه من ماركس ، **بنيويا** وليس **ديكالكتيكيا** ؟ وهذا السؤال يثير سؤالا آخر . في الايام التي كان يتشدق بها سارتر بـ « اتفاقه العميق مع الفلسفة الماركسية » سئل لماذا يتبنى الوجودية ويتبعها . والجواب على ذلك، كما يتضح من تطور سارتر النظري والسياسي، هو ان المرء لا يستطيع التبشير بالوجودية دون ان يرفض في الوقت ذاته **جوهر** الماركسية . والقول نفسه ينطبق على البنيوية ، على الرغم من خلافاتها مع الوجودية : فرفضها التماثل مع المادية الديالكتيكية ليس مجرد قضية مصطلحات او حفاظ على مكانة نظرية، بل تعبير عن **اختلافها الجوهري عن الماركسية.** وهذا يبرز في الآراء الاساسية التالية :

١) البنيوية لا تؤكد على مجرد الاولوية المنهجية للتزامنية على التعاقبية ، بلّ تفصل جوهرهما بشكل أساس بحيث تستبعد أية وحدة داخلية . ولكنها لا تصل بالطبع الى حد اعتبار الاشياء ساكنة تماما او ترفض التعاقبية . الا ان ما يسمى بـ « النظرية

البنيوية حول التعاقبية » ترفض في الواقع الحلول المناسبة للقضايا التاريخية .

وفي الوقت الذي تقر فيه بتطور البنى المختلفة مع الزمن ، تتناول ذلك ليس كعملية تنعكس في المستقبل ، بل على العكس كحركة تتجه نحو الكمال ومن ثم الركود . وهكذا يكتب اللغوي غريماس قائلا ان « التاريخ بدلا من ان يكون نقطة انطلاق ، كما يزعم الى ما لا نهاية، ما هو الا نهاية ، انه « كابح اكثر منه محرك »، ومن ثم حسب وجهة نظره ؛ « يوجد الكثير من الصحة في القول الشعبي، كلما زاد تغير الشيء قل تغيره » (الازمنة الحديثة، تشرين الثاني — نوفمبر ١٩٦٦ ، ص ٨٢٣). وهذا يستثني الشيء الاساس ويتغاضى عن : ان التاريخ عملية تطور مستمرة لا نهاية لها المجتمع الانساني ، أي كل ما هو التاريخ حقا .

وحيثما تعترف البنيوية بحدوث تغيرات في البنى فانها تعتبرها مجرد « انفجار البنية » ناجم عن اصطدامها بظروف خارجية .وهذا يتجاهل **القوانين الداخلية للتطور التاريخي** . وهكذا يترك التاريخ « مفتوحا » ، ويعتبر مجرد تتابع عرض لعهود وفترات غير مترابطة . ومن ثم يعتبر فوكو في كتابه « كلمات وأشياء » عهود تطور المعرفة الانسانية كسلسلة من صور نظرية المعرفة ، كخليط من التغيير بدلا من عملية

مثابرة من تطور المعرفة التقدمي . وبالمقارنة بـالفهـم الدياليكتيكي للبنية والتاريخ في وحدتهمـــا العميقة ، تؤكد البنيوية التي تتجاهل هذه الوحدة على الثبـات النسبي للبنى . وهذا يتركها في حلقة مفرغة تتذبذب بين البني التي لا تأريخ حقيقي لها ؛ والتاريخ الذي لا بنى حقيقية له .

٢) تقدم الماركسية فهما عقلانيا عميقا لوحـدة البنية والتاريخ وتكشف عن القوة الدافعة لكل العمليات والتي هي **التناقض الديالكتيكي . وكوحدة** النقيضين، تضم كلاً من الثبات النسبي للبنية والتتابع الذي تحكمه القوانين لمراحل التطور التاريخي . ولكن بما انهـــا **صراع** للاضداد تكشف في الوقت ذاته عن الديناميـة الداخلية للبنية والتغيرات التي تقرر تاريخها الحقيقي .

ان التناقض الديالكتيكي غريب على البنيوية ــ وهذه خاصية رئيسية في منهجها . فهي لا تقر الا بتجاور الحقائق يكمل بعضها بعضا ، الظواهر والبني، اي الشكل الخارجي ؛ او بانعكاس باهت للتناقـــض الديالكتيكي . وفي العـــادة تهتم البنيوية بالتجـاور التكاملي لعناصر هذا النظام او ذاك ، مثل نظام القرابة، او نظام المفاهيم . وهذه ليست تناقضات ديالكتيكية ذاتية ، لان عمل عناصر النظام المختلفة لا صلة لـــه بالديالكتيك ، بل بآلية الظاهرة .

ان الهدف الرئيسي للتحليل العلمي هو اظهار ان الثبات الواضح لهذه الآليات يخفي وراءه العمليات المتناقضة التي ولدتها (ولدت هذه الآليات ــ المترجم) والتي تحولها في مجرى التطور الضروري الى آليات جديدة . والماركسية لا ترفض تحليل آليات التطور الاجتماعي الملموسة . والدليل على ذلك تحليل ماركس في رأس المال لآلية الانتقال من دائرة بضاعة ــ نقد ــ بضاعة ، أي صيغة الدورة البسيطة للبضاعة ، الى الصيغة العامة لرأس المال ، أي دورة نقد ــ بضاعة. وتساعدنا تناقضاتها على فهم آلية خلق فائض القيمة وعملية الصراع الطبقي . ولا يتجاهل منهج ماركس آلية الظواهر ، ولكنه يركز على كشف ديالكتيك العمليات الكامنة وراء ثباتها النسبي . فهذا المنهج العلمي الديالكتيكي مكن ماركس من اثبات ان «المجتمع الحالي ليس متماسكا تماسك البلور ، بل هو جهاز قادر على التغير وهو دائم التغير » (رأس المال ، موسكو ، ١٩٦١، المجلد اول ، ص ١٠). وفي هذا المجال لا بد من اعتبار المنهج البنيوي مناهضا الديالكتيك .

٣) لماذا تتعامى البنيوية عن التناقضات الديالكتيكية ، تلك الحلقة الموصلة بين التاريخ والبنية؟ الجواب هو انها تتجاهل أساس التطور الاجتماعي ذاته ــ ديالكتيك قاعدة المجتمع الانساني ، أي ديالكتيك

الانتاج الاجتماعي للقيم المادية . وهــــذا هو جــوهر القضية : لا ينفصل ديالكتيك ماركس العلمي عن ماديته لان ديالكتيك جميع نواحي الوجود الاجتماعي والــوعي يكمن في نهاية المطاف في نشاط الانسان المادي (رغم انه غير محصور فيه) . ومن ثم ، فهما كانت المزايــا الجزئية للبنيوية ، فانها لا تستطيع ان تكون فعــالــة كلية لانها تتجاهل القاعدة المقررة في كل الظــواهــر الاجتماعية .

وليس هناك اية صحة في زعم البنيوية انها منهج شامل لمعرفة جميع الظواهر والعمليات . فنقطـــة انطلاقها هي اضفاء صفة مطلقة على اللغـــة والبنـــي اللغوية التي من المفروض ان تقرر جميع العــوامــل الاجتماعية . يقول ليفي ــ شتراوس « ان اللغة هــي بالدرجة الاولى ، **ظاهرة ثقافية** (تميز الانســـان عن الحيوان) » (الانثروبولوجيا البنيوية ، ص ٣٩٢) . وتنحدر من ذلك البديهة الاساسية للبنيوية ، أعنـــي، أن علم اللغات هو العلم الاساس في ميدان العلــوم الانسانية الرحب . ولا يبدو البنيويون متماسكـين: فهم يطالبون بتحليل مجمل العناصر وارتباطاتها ضمن نظام ما ، ولكنهم يعزلون عاملا واحدا ، عنصرا واحدا، ثم يعلنون عن اهمية هـــذا العامل الحاسمــة . ان ديكارت في عصره اعتبر اللغة الشيء الوحيد الـــذي يميز الانسان عن الحيوان . ولكن في عصرنا توجــد

أدلة علمية على وجود نظام لعوامل سببية تكون اللغــة فيه عنصرا من العناصر ، الى جانب عناصر اخــرى تتساوى في الاهمية مثل تكييف وصناعة الادوات التي ساهمت ، في نهاية المطاف ، في ظهور اللغة بالاتصال الوثيق مع تطور وعي الانسان .

ان البنيويين على خطأ في اعتبارهم علم اللغات « العلم الاساس » . فالنقل الآلي لمناهج ومفاهيم علم من العلوم الى آخر دون دراسة مسهبة للاختلافــات الحقيقية او لمحتواها الخاص يؤدي الى الاستعــاضة عن البحث العلمي بالاستعارة ، كما أشار بحق عالــم اللغة الماركسي مونين . ان البنيويين يذهبون حــد الافتراض بأن تجميــــع عدد معيــــن من المفاهيــم والمصطلحات التي لها صلة بمجموعة حقائق عن الظرف الانساني منعزلة يوفر « المفتاح » لـ « أسرار » المعرفة. الا أن الحقيقة هي ان المنهج « الابستمولوجي » هــو منهج شكلي وعقيم تماما . وتغاضي البنيوية عن المادية التاريخية يفرض عليها العودة الى لغز التاريخ غــير المحلول ، الى مأزق المثالية الانثروبولوجية واعتباطية الوصفات الابستمولوجية .

تتميز البنيوية الحديثة ببعض **الغموض** ســواء في المحتوى أو المضامين . ولكن مما لا ريب فيه ، ان البنيوية هي خطوة الى الامام بالنسبة للعــديد مــن

المدارس الفلسفية البرجوازية في الماضي والحاضر .
فقد ظهرت وانتشرت في**فترة أزمة الفلسفة البرجوازية** عندما أصبح واضحا جدا أن المذاهب الفلسفية البرجوازية التقليدية غير قادرة على حل القضايا الحاسمة في مجالي الوجود والمعرفة . وهذا ينطبق بصورة خاصة على النظريات الذاتية ، التي اذا ما قارناها بالافكار البنيوية**والمنهج البنيوي بدت هذه الاخيرة خطوة** الى الامام حقا . لان البنيوية ، التي ترفض المفاهيم الذاتية للوجودية والشخصانية ، **تنطلق** من بحث في الظرف الانساني ومن تحليل البنى **الموضوعية** ـ الاقتصادية والتاريخية والثقافية واللغوية الخ ـ وتعتمد على واقع مادي واسع للتدليل على استنتاجاتها .

*

انتعاش الميتافيزيقية

ولكن البنيوية لا تقدم فهما علميا للعمليات التاريخية وهي في الواقع ، تنفي التقدم الحقيقي للتطور الانساني . وفي الحقيقة ، ان الافكار البنيوية أثرت في انتعاش المفاهيم الصوفية للتاريخ في الانسانيات . ويجري التقليل من المعنى الحقيقي للتاريخ ، ويفصل الوعي الانساني عن البنىالواقعية ويقدم باعتباره كينونة ذات ضبط ذاتي . ان **البنيوية لا ترى التناقضات الديالكتيكية في العملية التاريخية ،** ولذلك لا يمكن أن تحدد الاسباب الحقيقية للظواهر الاجتماعية او تفسر ظهور البني الاجتماعية المختلفة او العوامل المقررة لتطورها أو تغيرها . وليس مصادفة ان تضطر الى التسليم بأسبقية (Apriori) شاملة **لقوانين الروح الانسانية** . وتعتبر البنى نفسها مشتقة من هذه القوانين، التي تعود بنا الى تصورات ديكارت عن الطبيعة الفطرية للافكار (انظر : كومسكي ، علم اللغة الديكارتي). ولكن بما ان البنيوية تدعي كونها مذهبا علميا وضعيا ، فمن الطبيعي ان لا تكون لديها الرغبة في اكتساب مسلماتها وقوانينها معنى لاهوتيا

(ثيولوجيا) . ومن هنا ، فان « قوانين الروح الانسانية » لا تعتبر مقررة «من فوق » ولكنها تعتبر بنى للذهن الانساني افتراضية أبدية ثابتة موروثة . وهكذا تتوحد ، في البنيوية ، المثالية والميتافيزيقية مع مبادىء مادية القرن التاسع عشر البيولوجية المحدودة والتي تخطاها الزمن .

ان الماركسية وضعت حدا للافكار الميتافيزيقية المجردة عن الطبيعة الانسانية الابدية الشاملة وقدمت حلا علميا للقضية الفلسفية التقليدية عن جوهر الانسان كاشفة عن مضامينها الاجتماعية عميقة الجذور . يقول ماركس في موضوعته السادسة الشهيرة حول فيورباخ : « ان الجوهر الانساني ليس تجريدا متأصلا في كل شخص بمفرده . وهو في واقعه كل عضوي واحد من العلاقات الاجتماعية ». هذا هو مفتاح القضية كلها . ولكن هذا لا يعني اننا ينبغي أن نتجاهل الظروف البيولوجية والجغرافية والظروف الطبيعية الاخرى الاولية لتطور الانسان . ومع ذلك فان الاعتبار الرئيسي هو ان العوامل الطبيعية في الحياة الواقعية تتحول بصورة متزايدة الى عوامل اجتماعية ، وتقيم الانسانية حياتها بشكل متزايد على عوامل اجتماعية ـ تأريخية وتصبح العوامل الاجتماعية حاسمة في حياة الانسان ونشاطه ، وانه لمن الطبيعي في نهاية المطاف ان تحدد جوهره ـ ليس باعتباره شخصا

مجردا بل **فردا تأريخيا ملموسا** .

واذا كان للانسانيات ان تحقق نتائج مثمرة فينبغي عليها أن تقوم على فهم الانسان باعتباره كلا عضويا واحدا من العلاقات الاجتماعية . وعلى أية حال ، فان البنيوية تتجاهل في الواقع الطبيعة الاجتماعية للانسان وتحول الانسانيات نحو مملكة التأمل التجريدي الميتافيزيقي .

وهذا ما منع البنيوية من فهم « المعنى الحقيقي للتاريخ » ، وبصورة خاصة قوانين الصراع الطبقي ، تلك القوانين التي تبقى ، في الحقيقة ، بعيدة عن مدى ادراكها . وبرهنت البنيوية على عجزها في اكتشاف الجوهر الداخلي للعمليات الاجتماعية المقنعة بمظاهرها السطحية . لان الظواهر الاجتماعية الحقيقية ، كما تبين الماركسية بشكل قاطع ، يمكن ان تختلف عن الاشكال الايديولوجية التي تتبدى فيها للوعي الفردي. فمثلا ، ان العلاقات بين الناس في عملية الانتاج والتبادل يمكن اعتبارها خطأ على انها علاقات بين الاشياء . وعلى اية حال ، فان الاشكال المتصوفة من الوعي ، لها على الدوام أساس موضوعي محدد : هو العلاقات الاجتماعية التي يمكن معرفتها تماما من خلال التجربة العملية . وهذا هو مصدر امكان التقدم من **الوعي الزائف الى الوعي الحقيقي** الذي هو هدف المعرفة العلمية .

وعلى أية حال ، فان البنيوية تسلك طريقا آخر . وهي تقيم،بتجاهلها الجوهر الحقيقي للانسان وقوانين التطور الاجتماعي ، حاجزا لا يمكن عبوره بين البنى الاجتماعية الموضوعية المنضبطة ذاتيا واشكال الوعي التي تجد فيها البنى تعبيرها. يقول ليفي-شتراوس: « لقد وصلنا مرحلة نستطيع أن نتصور فيها البـنى الاجتماعية باعتبارها أشياء مستقلة عن صورهـا الذهنية في وعي الناس ، باعتبارها اشياء تختلف عن التخيلات التي تكتسبها في انطباعات الناس ، تماما كما يختلف الواقع المـادي عن تصوراتنـا المـدركـة والاستنتاجات الافتراضيـة التي تصوغها عنـه » (الانثربولوجيا البنيوية ، ص ١٣٤).

ومما له دلالته ، ان يبحث ليفي ــ شتراوس عن سند له لدى ماركس وان يحاول تفنيده في الوقت ذاته . وهو ينوه بـ« صيغة ماركس الشهيرة » التي يقتبسها على الوجه التالي : « يصنع الناس تأريخهم، دون أن يعوا ذلك . » (المصدر نفسه ، ص ٣١) . ولكن ليس هناك اشارة الى المصدر الاول ، وذلك لسبب وجيه هو ان هذا المقتبس محض تلفيق بكل مـا في الكلمة من معنى ، وقد اشار الى ذلك بيران في عدد تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٧ من مجلة « الفكر » . اذ ان ماركس لم يكتب مطلقا ما يشابه هذا المقتبس

واو من بعيد ، ولم يكن بمقدوره ان يفعل ذلك ، لان آراءه كانت مختلفة تماما .

ونورد هنا المقتبس المقصود من الثامن عشر من بروميير لويس بونابرت : « ان الناس يصنعون تأريخهم الخاص ، ولكنهم لا يصنعونه كما يرغبون ، ولا يصنعونه في ظل ظروف يختارونها بأنفسهم ، ولكن في ظل ظروف موجهة ومحددة ومحولة من الماضي. » ان ماركس لم يقل في هذا ولا في مثيلاته من الآراء ان الناس في عملية صنعهم التاريخ محكوم عليهم بجهل معنى أعمالهم . وما يقوله ماركس هو ان الناس في عملية صنعهم للتاريخ ينطلقون من ظروف قائمة موضوعيا لا يستطيعون تغييرها برغبتهم . وان تقويم هذه الظروف لا يحدث فجأة ، بالطبع ، بيد انه يحدث في مجرى كفاح الشغيلة التحرري الطويل والصعب. وانها لرسالة الحزب الشيوعي أن يساعد البروليتاريا وحلفاءها في تقويم الظروف القائمة ، وفي رؤية وفهم آفاق الكفاح المظفر من اجل مستقبل أفضل ، ومن أجل تصفية العلاقات الاجتماعية القديمة ، علاقات الاستغلال . يقول ماركس في «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » وهو يتحدث عن اهمية الموقف الواعي من ظروف ذلك الكفاح : « ان معرفتهم بأن ثمار عملهم لهم ، وكذلك ادراك الحقيقة الماثلة في ان فصل عملهم عن ظروف وجوده غير عادل ومفروض

بالقوة ، انما هو دليل وعي عظيم ، وعي هو نتاج نمط الانتاج القائم على الرأسمال و ... يقرع ناقوس الموت لذلك النمط من الانتاج ».

ان هذا كله لا علاقة له بـ « صيغة ماركس الشهيرة » التي اخترعها ليفي ـ شتراوس لكي يشوه الماركسية ويبرر افكاره غير العلمية عن التاريخ الانساني . وبالمناسبة ينبغي علينا ان نلاحظ ان الافكار والصيغ والاقتباسات المشوهة المأخوذة من كلاسيكي الماركسية ـ اللينينية قد أصبحت موضة بسبب توق الايديولوجيين البرجوازيين اوضع الافكار الماركسية في قالب يناسب غرضهم ويظهرهم القارىء البسيط في ضوء زائف .

●

نقد « النقاد »

ان غموض البنيوية واضح كذلك في الطريقة التي واجهت فيها التيارات الفلسفية المختلفة غزو البنيوية المفاجىء للحياة الايديولوجية في فرنسا . وقد قدم الماركسيون الفرنسيون تقويما موضوعيا شاملا لمكانتها ودورها، وهذا التقويم لا يمنع المناقشة فيما بينهم حول القضايا الهامة التي طرحتها البنيوية .

لقد نوقشت العلاقة بين الماركسية والبنيوية في اثنتي عشرة مقالة في عدد خاص من مجلة «الفكر» (عدد ١٣٥ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ١٩٦٧). وقد أثارت هذه المقالات تعليقات كثيرة واعيد طبعها وصدرت لها ترجمات في العديد من البلدان . ان الجوانب الايجابية والسلبية لتيار معقد ومتناقض في الفكر الفلسفي والعلمي مثل البنيوية لا يمكن ان يجري تقويمه بصورة موضوعية وصحيحة الا من مواقع المادية الديالكتيكية والتاريخية .

وجاء رد الفعل الاكثر أهمية من الوجودية السارترية والشخصانية المسيحية ، وهما فلسفتان

« تقاعدتا » بظهور البنيوية . ان الشراح البنيوية مع كونهم يختلفون حول نقاط عديدة ، فانهم **يتهمون** البنيوية بمعاداة الانسانية ، وبحرمان الانسان من « تاريخه ومعناه » . وتوجه للبنيوية تهمة **اخرى** هي انها تقدم دعما للايديولوجية التكنوقراطية التي تنحط بالانسان وتدمر قيمة الاخلاقية والثقافية والدينية .

ان ريكير ودومنياك، اللذين انتقدا البنيوية من مواقع الشخصانية المسيحية (انظر ، اسبريت ، تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ **١٩٦٣ ، ايار ـ مايو ـ ١٩٦٧**) يضعان في مواجهتها مفهوما دينيا **مجردا** للانسان قائما على الاعتراف بجوهره «الابدي.الالهي». وهدفهما هو تبرير عقائد المسيحية ومبادئها الاخلاقية. ومن هنا فاذا كان المرء يستطيع قبول اتهاماتهما للبنيوية التي (نست الانسان) الخ ، فانه بالتأكيد لا يستطيع قبول آرائهما الايجابية . لان مفهومهما الخاص عن الانسان يقوم على أفكار غير علمية حول الطبيعة « الالهية» للانسان تلك الطبيعة غير الموجودة.

ان النزعة السائدة في البنيوية وفقا لرأي سارتر هي « رفضها للتاريخ » **ولدور الممارسة الانسانية** . (وهو يستخدم المصطلح Praxis عن قصد ، كما سوف نرى ، تجنبا لاستخدام المصطلح الماركسي .)،

ويلاحظ سارتر في ادانته لموقف البنيوية المعادي التاريخ، ان نظام اللغة والبنى الاجتماعية بصورة عامة تحمل « آثارا من تأثير الممارسة » ولذلك ينبغي علينا لتحليل أصل البنى أن نرجع الى مفهوم Praxis باعتباره عملية شاملة » . ومن ثم يأتي تأكيد سارتري نموذجي : « انه من الواضح تماما في صنع التاريخ أن الهدف ، الفكرة هو تحطيم الماركسية واختراع ايديولوجية جديدة باعتبارها العقبة الاخيرة التي تستطيع البرجوازية ان تقيمها ضد ماركس (لارك، عدد ۳۰، ۱۹٦٦). ولكن من الواضح تماما ايضا ان سارتر ينتقد البنيوية ، التي تدعي القرابة من الماركسية ، لا باسم الوجودية ولكن **باسم الماركسية.**

يرغب كل امرء في عصرنا بان يعتبر ماركسيا، وهذا التحول الكلي نحو الماركسية هو عرض من أعراض الحياة الايديولوجية الفرنسية اليوم . ويعبر هذا عن العمليات الاجتماعية العميقة التي تزيد من تفاقم الازمة الايديولوجية ، أزمة الوعي البرجوازي . وهذا ما يفسر الاهتمام المتزايد بالافكار الماركسية ، وتأثيرها المتعاظم على الفئات الاجتماعية المختلفة . وعلى أية حال، فان ـ ماركسية ـ سارتر ليست هي الاداة الاصيلة ، فهي تحمل أثر الافكار والتصورات الوجودية ، وعلى وجه التحديد ، لا تعني ـ الممارسة Praxis ـ لديه نشاط الناس الاجتماعي التاريخي

ولا الكل العضوي الواحد للعلاقات الاجتماعية ، الذي هو فهم ماركسي للممارسة ، ولكن مجرد النشاط الذاتي للفرد ، مجرد اعماله « الحرة » القائمة على حرية الاختيار الخ.

ان الجوهر العقلاني في التسبيب السارتري هو قبول الانسان كصانع للتاريخ. ولكن التفسير الوجودي ذاتي الى حد بعيد ، بحيث تصبح العملية التاريخية كلها تجسيدا لارادة الذات والوعي . ان البنيوية في هذا المجال على حق لانها تدرك أسبقية البنى الاجتماعية الموضوعية على أهداف الانسان الذاتية وعلى مطامحه . وباختصار ، لا يمكن دحض البنيوية من مواقع الوجودية أو أية فلسفة ذاتية اخرى . ان المناظرة الوجودية ــ البنيوية « لا يمكن حلها بنيويا » اذا صح التعبير ، بما أن كلتيهما في الوقت نفسه داحضة ومدحوضة . وانهما خاضعتان الى التقييدات الملازمة للافكار والآراء البرجوازية ، ومن هنا ينشأ الغموض والالتباس في نقد الواحدة الاخرى .

البنيوية السكونية
والبنيوية التطورية

ان الغموض البنيوي يتكشف بأجلى معانيه في الصراع بين **تياراتها الداخلية** المختلفة . اذ ينكر العديد من انصارها في الواقع التطور التاريخي للبنى ؛ مصرين على أسبقية طريقة الفهم التزامنية Synchronic على طريقة الفهم المتعاقب زمنيا (تأريخيا) Diachronic وهكذا، فعلى الرغم من التحفظات المختلفة فان آراءهما عن الظواهر الاجتماعية هي بصورة اساسية سكونية. وقد انتقد هذه **البنيوية السكونية** بياجيه وهو سيكولوجي بارز وناطق معترف به باسم البنيوية التطورية .

انه يعتقد بأن الخطيئة الاساسية للبنيوية السكونية هي انها تخلق ثغرة بين التكون والبنية . ويقول ان منهج ليفي ــ شتراوس يعتمد كلية على مفهوم سكوني للبني ويغفل عملية تكونها . ويوجه أقسى نقده الى فوكو : « لقد أخذ من البنيوية السكونية كل جوانبها السلبية : الانتقاص من قدر

التاريخ والتكون ، اللامبالاة تجاه الوظائف ، وفي نهاية المطاف ، نقض الموضوع نفسه » (البنيوية ، باريس ، ١٩٦٨ ، ص ١١٤) . ويؤكد بياجيه بشدة على انه يوجد « ترابط داخلي ضروري بين التكون والبنية ، فالتكون ليس تحولا بسيطا من بنية الى اخرى ، انه تحول تكويني ، تحول يقود الى تشكيلات اكثر تعقيدا باستمرار . ومن جهة اخرى ، فان البنية ليست مجرد نظام للتحولات ، بل هي نظام جذوره في حركة وفعل » (المصدر نفسه ص ١٢١) .

ان هذا النقد للبنيوية السكونية ، وهذا التأييد المتواصل لمبدأ التطور والتكون بوصفه الاساس المقرر لكل بنية ، يدفع المرء للتساؤل : هل آراء بياجيه ماركسية ؟ أليس هو ماركسي بنيوي ؟ ان ل . غولدمان وآخرين يعتقدون ان ماركس بنيوي . ولكن لماذا لا يقول بياجيه ذلك ؟ وكيف يستطيع المرء ان يفسر موافقته التامة على آراء غودلييه التي عبر عنها في مقالة في المجلة الوجودية « الازمنة الحديثة » (تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٦٦) » نظام وبنية وتناقضات كتاب رأس المال » . ان المقالة لا تنتقد آراء ليفي ـ شتراوس وتقبل الديالكتيك الماركسي منقحا ومصححا الى الحد الذي يلائم نموذج ليفي ـ شتراوس ، وبتعبير آخر ، عندما يكف الديالكتيك في الواقع عن ان يكون ديالكتيكيا .

لقد رأى بياجيه في أعمال التوسر امكان «ترجمة الماركسية الى بنيوية » . ولكن دعونا نستشهد بالتوسر في مقدمته للطبعة الثانية من كتابه « قراءة رأس المال » : « لقد َقبلَ تفسيرنا وأكد عليه باعتباره تفسيرا «بنيويا» اذعانا للموضة الحالية. وعلى أية حال ، اننا نعتقد انه بالرغم من التشابه الاصطلاحي فان موضوعاتنا في معناها الداخلي لا يجمعها جامع مع الايديولوجية البنيوية . » ومن البديهي ان استخدام مفاهيم مثل البنية ، والنظام ، والعناصر الخ لا يعني البنيوية .

ان القيمة العلمية لاعمال بياجيه ، وبخاصة دراساته في مجالات مختلفة من السيكولوجيا لا يمكن ان يطالها الشك. ولكن آراءه النظرية والفلسفية العامة لا يمكن اعتبارها ماركسية بأي معيار من المعايير وما يؤكد هذا ايضا أي تحليل لمفهوم التكون نفسه، ذلك المفهوم الذي لا يفضله بياجيه على المقولات الديالكتيكية بمحض المصادفة ابدا . ان كلمة « تكوّن» ليست مشتقة ، كما لاحظ غانديلاك بحق من الكلمة اليونانية Genesis والتي معناها : يصبح ، بل من كلمة Genesis بمعنى عمل ، ولادة (محادثات تسيريس حول التصورات عن التكوّن تعني الاستمرار وتعني عملية تكرر ظهور هذه البنية او تلك ، عملية تصل في كل وقت ذروتها في التحقق . ويتناول

بياجيه مفهوم التكوّن من وجهة النظر هذه بصورة خاصة عندما يقول : « بقدر ما يتعلق الامر بي فانني أجد من الممكن التوفيق بين التكوّن والبنية عن طريق تحويل الاخيرة الى شكلٍ خاص من التوازن الذي يتجه التكوّن نحوه » (المصدر نفسه ص ١٨). ان فهم التكوّن بعتباره ينتج باستمرار بني جديدة ويميل نحو التوازن لا يمكن بكل تأكيد جعله مساويا للفهم الديالكتيكي للتطور التاريخي . لان التعاقب البسيط التكونات في مجمل العملية التاريخية لا يكشف قواها المحركة الداخلية ، ولا تناقضاتها الديالكتيكية التي تتضمن « العمل السلبي » للتاريخ وليس مجرد الخلق الايجابي البني والاحداث والظواهر المختلفة .

ومن الواضح ، ان استقصاءا علميا هو بحاجة ماسة الى تحليل أصل الظواهر المختلفة ، أعني اقامة الدليل على تكوّنها . ويمكن تجريد هذه الظواهر ضمن حدود معينة من التناقضات الداخلية العملية التاريخية بمجموعها . ومما يجدر ذكره ان ماركس يستخدم في كتاب « رأس المال » هذا المنهج بيسر في دراسة تكوّن رأس المال . وعلى أية حال ، فان ما جعل ماركس قادرا على كشف جوهر الانتاج الرأسمالي والقوانين الداخلية للتطور انما هو تحليله العميق لكل ديالكتيك الانتاج الرأسمالي . وهذا ممكن في التقدير التقريبي الاول ، مثلا في دراسة ذكاء الطفل ، بل هو ضروري

الى حد ما لكي يفصل المرء نفسه عن التطور التاريخي. ومع ذلك، فان تكوّن ذكاء الطفل لا يمكن ان يفهم كلية وان ينكشف جوهره الحقيقي الا في الترابط العضوي مع التطور المتكامل لشخصية الطفل، ومع ديالكتيك نظام العلاقات الاجتماعية.

وكما ذكرنا سابقا ان نقد بياجيه البنيوي التطوري للبنيوية السكونية صحيح على العموم. ولكن مفهوم بياجيه التكوّن يعيقه عن كشف الاسباب الحقيقية للتطور الاجتماعي وطابعه. والابعد من هذا ان مفهومه يقوده الى المطابقة بين الظواهر **البيولوجية** والظواهر التاريخية وبذلك نراه يبعث من جديد آراء أنصار « النظريات العضوية (١)» عن المجتمع، تلك النظريات التي دحضت منذ زمن طويل. ويقول منتقدا نظرية كومسكي « فطرية الذكاء » ونظرية ميفي – شتراوس « ديمومة الذكاء البشري »: « ليس هناك شيء يمكن تسميته بالبنية الفطرية: فكل بنية تفترض عملية نشوء. ومثل هذه العمليات تقودنا الى البني السابقة والى القضية البيولوجية في نهاية المطاف ». وأبعد من ذلك « انني لا اعتقد ان تطور الذكاء يختلف في طبيعته عن التطور البيولوجي » (محادثات تسنيريس،

---

(١) « النظرية » العضوية، وهي النظرية التي ترى في المجتمع كائنا عضويا حيا. **(المترجم)**

ص ٤٢ و٥٤). ان النظر الى الظواهر الاجتماعية باعتبارها ظواهر بيولوجية ، انطلاقا من مواقع بنيوية ، لا يضع في الاعتبار الاختلافات النوعية الاساسية بين المجتمع والطبيعة . ان هذه النظرة من حيث المنهج هي نظرة ميكانيكية ونوع من انواع المبادىء الميتافيزيقية التي تجعل من غير الممكن الكشف عن الجوهر المحسوس للظواهر الاجتماعية والقوانين الحقيقية للتطور التاريخي . ولذلك ، فان البنيوية بمجموعها ، وبالرغم من الافكار العقلانية لنوعها التطوري ، تستخدم موضوعيا **كبديل للماركسية مضاد للديالكتيكية .**

هذا ما يفسر الى حد بعيد الحماس الذي أثارته البنيوية في أوساط اكثر الايديولوجيين رجعية . ويفسر أيضا سقوطها المدمر بعد احداث أيار ـ حزيران (مايو ـ يونيو)، التي بشرت بانهيار جميع أنماط السكونية وبالكشف عن جميع التناقضات الديالكتيكية وعن « انتقام » فلسفة « الحياة » و « **الحرية** » و «الفرد» ، انتقام التاريخ اذا جاز التعبير . وكل هذا يظهر بوضوح ان البنيوية كانت غير منسجمة مع الواقع بكل تعقيداته وديناميته وتناقضاته .



فهل يعني هذا ان ليس ثمة من مكان للافكار

البنيوية في الحياة الايديولوجية الفرنسية ، الآن وفي المستقبل ؟ ان اي استنتاج مثل هذا سابق لاوانه ، لان البنيوية بالرغم من العقبات التي تواجهها تجد تربة خصبة في الوضع الخاص الذي تطور في الفكر العلمي والفلسفي . فمن جهة ، هناك النهوض الهائل في العلوم الذي يتطلب موضوعيا فلسفة وثيقة الصلة بعملية المعرفة العلمية . ومن جهة اخرى ، هناك نقص في معرفة الديالكتيك بين اقسام مختلفة من الاسرة العلمية ، ذلك النقص الذي من الطبيعي ان يسهل ظهور المفاهيم المعادية للديالكتيكية ، وبخاصة عندما تجري محاولة الباسها لبوس العلم . وليست هذه هي المرة الاولى التي يتوجب فيها على الماركسية ان تواجه مثل هذا الوضع . فقد أوضح لينين في كتابه « المادية والنقد التجريبي » تناقضات هذه المفاهيم عندما يقوم التقدم العلمي ، الذي تسيطر عليه الافكار المثالية والميتافيزيقية الى أزمة منهجية في العلوم الطبيعية والى شيوع آراء فلسفية دارجة غير علمية .

ان انتعاش افكار البنيوية بعد هزيمتها المؤقتة بعد عام ١٩٦٨ ، ليس بالطبع مصادفة في الوضع الراهن . فأبرز الامثلة صدور كتاب في أواخر السنة الماضية بعنوان « المصادفة والضرورة ، بحوث حول القضايا الفلسفية للبيولوجيا الحديثة » سرعان ما

أصبح من بين أكثر الكتب العلمية رواجا ، والكتاب بقلم جاكس ممونود الاخصائي البارز بالبيولوجيا والحائز على جائزة نوبل . ليس هدفنا تحليل القضايا الفلسفية البيولوجيا ، تلك القضايا التي كرس الكتاب بصورة أساسية لها . ولكننا نعتبر من الضروري ان نحدد الافكار والافتراضات البنيوية التي وجدت لها تعبيرا جليا الى حد ما في الكتاب.

ان الاشارة هنا الى ما يلي : التطبيق العام للنموذج اللغوي على البحث البيولوجي (« نظرية قانون التطوز هي القاعدة الاساسية للبيولوجيا » ص ١٢) ، تعريف جوهر الانسان وفقا المفاهيم اللغوية، وبالاستناد للاقصاء الشامل للعمل او العلاقات الاجتماعية (ص ١٤٤) ، وقبول المفهوم الديكارتي « الطبيعي » لنظرية اللغة (بالرجوع الى كومسكي ومن خلاله الى ديكارت ، ص ١٥٠)، نقض التطور ، وفقا لروح البنيوية السكونية ، داخلَ البني والمبني نفسها (في أفضل الحالات ان «تشويه الثبوتية» اي «تشويه التشكيلات الثابتة ، مسموح به ، ص ١٣٠)،وهجوم مركز على الديالكتيك الذي يسوّي بينه وبين التطورية السبنسرية (المؤلف يعرّف الاثنين باعتبارهما « التقدمية العلمية في القرن التاسع عشر » ، ص ١٤٥) . ان السمة المميزة ، بصورة عامة هي العداء للماركسية ، التي يصفها المؤلف باعتبارها ايديولوجية

« حيوية المادة »(٢) و « صورة زائفة من العلم » (ص ١٩٤)» مشحونة بالعديد من الاخطـــار التـــي أصبحت واقعا » (ص ١٩٣)، الخ .

ويتخلف لدى المرء انطباع بأن الافكار البنيويـــة التي نمت بسرعة في ١٩٧٠ **ترتبط طبيعيا** بالبيولوجيا الجزيئية ، وهناك شهادة علماء ثقاة تدعم ذلك . ولكن هذا الانطباع **سطحي** محض. لان جميع الافكار البنيوية الاساسية غير مستعارة من حقل بحث مونود ، ولا من حقل البحث في البيولوجيا الكيماوية الخلوية ، وفي الحقيقة ، ليس من البيولوجيا الحديثة بصورة عامة. انها في الواقع مأخوذة من مصادر ، **غريبة**، انها ليست مأخوذة من المؤلفات البنيوية في الستينات فحسب ، بل وأيضا من مصادر مثل الفلسفة الديكارتية .

ان نقد الفلسفة الماركسية ليـــس موجها ضـــد النتائج الاصيلة للمعرفة العلمية التي أقـــام انجـــلز ولينين بصورة مقنعة الدليل على أنها مترابطة عضويا، ولكن ضد استغلال المنجز العلمي لتدعيم نظريات مثالية وميتافيزيقية . وتقوم الفلسفة الماركسية اليـــــوم ، كما قامت في سنة ١٨٧٧ او ١٩٠٩ ، بوظيفتها الاكثر

---

(٢) حيوية المادة : هو الاعتقاد القائل بأن لكل ما في الكون وحتى للكون ذاته روحا أو نفسا .

(المترجم)

طبيعية وفائدة للعلم : يجعله يعي وعيا تاما قاعـدته الحقيقية وجوهره واهميته .

ان ما يميز الحياة الفكرية الفرنسية اليوم هـو الانقسام الواسع بين الانظمة الآيلة الى الزوال الفلسفة التأملية والبنيوية العلمية الجديدة ، ذلك التعبـير النموذجي عن الافكار الوضعية في التربة الفرنسيـة (لان الوضعية الانكلو ـ سكسونية فشلت بالرغم من كل جهودها الحصول على سند لها في فرنسـا) . ومع انه لا ريب في ان الجوانب العقلانية لمنهـج البنيوية ذات قيمة ، الا انها لم تقدم أي حل القضايا الفلسفية الاساسية ، وبشكل ملحوظ لجوهر وقوانين العملية التاريخية . وتبرز الماركسية ، اكثر من أي وقت مضى ، باعتبارها التعاليم الوحيدة القادرة على الكشف عن الطرق الحقيقية لمعرفة حقيقة العالـم وتحوله وفقا المبادىء الاصيلة للانسانية والعدالة .

ان الماركسية ـ اللينينية هي أكثر اسلحـة الشيوعيين قوة في النضال ضد كل اشكال وانماط الايديولوجيـة البرجوازية ومحاولاتها لاستغـلال الصعوبات والتناقضـات التي تكتنـف عملية ادراك العالم، وهي سلاح في الكفاح من اجل كسب المثقفين والشباب الى جانب الطبقة العاملة ، من اجل عمـل حازم ضد قوى الاحتكار والرجعية .

سلسلة دليل المناضل

تهدف سلاسل دليل المناضل التي تقدمها دار ابن خلدون للقاريء العربي الى تقديم خلاصة مبسطة قدر الامكان لمختلف فروع المعرفه بمنهج علمي تقدمي .

وتشمل هذه السلاسل على :

١ – سلسلة : في النظرية
٢ – » : تجارب اشتراكية
٣ – » : تجارب حزبية
٤ – » : تجارب حركات التحرير الوطني
٥ – » : المكتبة الأقتصادية
٦ – » : المكتبة الأدبية
٧ – » : دراسات عربية
٨ – » : مكتبة الشبيبة
٩ – » : المكتبة العمالية

الثمن ٢ ل.ل. او ما يعادلها